علاقة اللفظ بالمعنى وتعليم العربية

Ahmed ALDYAB*

الملخص تناولت في هذا البحث مسألة اللفظ والمعنى وكيف يمكن أن نسترشد من العلاقة بينهما ببعض النقاط في تعليم العربية لغير الناطقين بها. وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسية، تناولت في القسم الأول تفضيل العلماء للفظ على المعنى تفضيلاً تاماً، وجاء القسم الثاني بعنوان التمايز بين اللفظ والمعنى وبنيت في هذا القسم كيف فرق العلماء بين اللفظ والمعنى فانتصروا مرة للفظ ومرة للمعنى، واحتوى القسم الثالث على الأفكار التي قامت بتوحيد اللفظ والمعنى وعدم الفصل بينهما.

الكلمات المفتاحية: اللفظ، المعنى، العربية، تعليم العربية.

Lafız-Mana İlişkisi ve Arapça Öğretimi

Öz Bu araştırmamda lafız-mana ilişkisini ve yabancıların arapça eğitiminde bu ilişkiden nasıl faydalanabilecekleri konusu ele alınmıştır. Araştırma üç temel bölümden oluşmaktadır. Birinci bölümde bazı alimlerin lafzı manaya tercih etmeleri; ikinci bölümde bazı alimlerin lafız ve manayı biribirinden ayırmaları, bazen manayı bazen de lafzı tercih etmeleri incelenmektedir. Üçüncü bölüm ise lafız ve mananın asla ayrılamayacağı düşüncesini ihtiva etmektedir.

Anahtar kelimeler: Lafız, mana, Arapça, Arapça öğretimi

On the Relation between Utterance and Meaning and Arabic Teaching.

Abstract It is discussed in this study that (or this study is about); the relation between meaning and utterance and how the foreigners can benefit from this relation in Arabic Language education. This study comprises of three parts: The first part discusses some scholars prefers utterance to meaning. The second part discusses some scholars want to follow the way of seperation of the meaning and utterance (or isolate the meaning from utterance), sometimes they choose meaning, the other time utterance.(They can choose meaning or utterance from time to time.) In the third part; the idea "utterance and meaning can not be seperated from each other" is examined.

Keywords: Utterance, meaning, Arabic, Arabic teaching.

* Dr., Ankara Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arapça Okutmanı, ahmad.adyab@gmail.com

المقدمة:

تعد قضية اللفظ والمعنى من القضايا التي أثارت تفكير النقاد والبلاغيين وعلماء اللغة قديماً وحديثاً فقد كان لهذه القضية حظ كبير من المناقشات والجدل وقد بدأت في عهد مبكر من التاريخ الأدبي واللغوي. وقضية اللفظ والمعنى هي وجه من وجوه الثنائيات الكثيرة في الحياة والتي يمكن أن ترجع إلى نفس الهدف ونفس الأفكار والتصور.وقد تعرضت هذه المسألة للتجاذبات الفلسفية، حتى إن المسألة أرجعت إلى أفلاطون عندما قرر أفلاطون أن للموجودات عنصرين هما الهيولى والصورة، فأساس هذه القضية شيئان يمكن أن يعبر عنها بالهيولى والصورة أو اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون ويمكن أن نعتبرها الظاهر والباطن، وفي العصر الحديث اتخذت هذه المسألة بعداً آخر تمثل في الدراسات اللسانية وأصبحت تطرح هذه القضية على شكل دال ومدلول. وإن تعددت هذه المسميات وهذه التعابير إلا أنه كما قلنا ترجع إلى أساس واحد، وقد جاء هذا التعدد والتنوع في المسميات نتيجة لنظرة العلماء على مختلف دراساتهم وأفكارهم، فقد دخلت هذه القضية في المجال اللغوي والمجال الديني والمجال الأدبي وفي المجال الفلسفي وبرزت بشكل ملحوظ في المجال اللساني والدراسات القرآنية ،ففي العصور الأولى احتدمت المعركة في المجال الشعري بين شعراء كبار كأمثال جرير والفرزدق و البحتري وأبي تمام، وقد جاءت هذه المعارك الأدبية والنقدية ضمن اتجاهين يمثلان الشكل والمضمون أو اللفظ والمعنى، وكان لهذا التمييز أسباب موضوعية فرضت على الشعراء، فوجد الشعراء أنفسهم ينجذبون وراء هذه القضية بحكم التطورات التي حكمت بعض العصور نتيجة لدخول بعض الأفكارالفلسفية ودخول بعض العجم الدولة الإسلامية ونشاط حركة الترجمة الذي ساد في العصر العباسي، فقد كانت الأفكار الفلسفية وترجمة بعض كتب المنطق الأثر الأكبر في فلسفة المعنى وإدخاله في تعقيدات لا تنتهي، وقد حاول لبعض الشعراء أن يستغل هذه النقطة ليدلل على نفسه أنه يمتلك ناصية المعنى واللغة وبالطبع سوف يملك الألفاظ المناسبة، لأنه كلما كان المعنى مغقداً سيتطلب ألفاظاً معقدة وجزلة، وهذا الذي ساد في اعتقاد بعض الشعراء كأبي تمام الذي حاول أن يستفيد من الأفكار المنطقية والفلسفية في عصره ليظهر نفسه على أنه يواكب التطورات. ونتيجة لذلك فقد أدخل شعره في الصناعة والتصنع وابتعد عن الطبع والبديهة، وفي المقابل كان يسود اتجاه يمثل الطبع دون الصنعة وبحسب هذا الاتجاه فإن الألفاظ تنساب تبعاً للمعاني من غير تعقيد أو تلفيق وهذا ماكان يمثله البحتري بطبعه وسليقته وأنه ما انساق خلف

عملية التصنع والتكلف في الألفاظ والمعاني، ولهذا فقد لاحظ النقاد والعلماء هذه الفروق وتكلموا في المسألة وأبدوا الحجج والبراهين وانتصر بعضهم لهذا المذهب وانتصر البعض الآخر للمذهب الآخر بحسب رؤيته الفكرية والعقائدية والمذهبية، ولذلك نرى في تلك العصور قد أنتجت كتب في الموازنات والمقارنات بين هذين المذهبين. وحتى نرى كيف تم النظر إلى هذه القضية بشكل مفصل سأقوم بعرضها بحسب وجهات نظر العلماء وكيفية التعامل معها.

١- تفضيل اللفظ على المعنى

برزت مسألة تفضيل اللفظ على المعنى في التفكير العربي القديم، فقد انتصر مجموعة من الكتاب والنقاد العرب القدامى إلى الألفاظ على حساب المعاني وقالوا إن الألفاظ من حيث القيمة الإبلاغية والنقدية هي الأهم، فالمعاني موجودة في حياتنا يعرفها الكبير والصغير، ولكن المشكلة تبرز في كيفية اختيار الألفاظ لهذه المعاني، فمثلاً لو أخذنا معنى الشجاعة، فإن هذا المعنى يستطيع كل واحد أن يدركه ويستطيع أن يتكلم عنه العامي والأديب في نفس الوقت، وبالتالي عملية التقييم والتفاضل ستتجه إلى الألفاظ لا إلى المعاني هذا من جهة، ومن ناحية أخرى الذين يفضلون الألفاظ على المعاني لا يقتصرون على الكلمة المفردة واللفظة المستقلة وإنما يصرون ويؤكدون على جزالة وقوة اللفظ مع جودة السبك وحسن الصياغة، فنحن يمكن أن نختار لفظة جميلة أو قوية لكننا لا يمكن أن نضعها في صياغة مع زميلاتها من الألفاظ الأخرى وبذلك لا يمكن أن تتحقق جمالية الألفاظ ولا يمكن تفضيلها أو إعطائها القيمة المرجوة. وهذا ما أكده الجاحظ عندما قال " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والقروي والبدوي، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك "{الجاحظ،١٣٣: ١٩٨٣}.

فمن هذا الكلام يتضح أن المعاني مبتذلة استهلكت من كثرة الكلام فيها. وفي الحقيقة هذا ما نشاهدهفي عملية تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها عندما نرى كثيراً من المعلمين والكتاب يكتبون ويقلدون بعضهم حتى يكاد الموضوع الواحد والمعنى الواحد يمر بنفس الألفاظ والجمل والعبارات، ومن هنا تبرز سلبية استهلاك المعاني بنفس الصورة والأسلوب، وهذا ما شدد عليه أبو هلال العسكري في قوله " الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير ألفاظه "{العسكري،٦١: ١٩٧١}، فاللفظ كلما كان ناصعاً براقاً مولود لأول مرة كان أجدر به أن

يحقق الغاية والهدف المطلوب في عملية التعليم ولهذا يكمل أبو هلال العسكري كلامه عن المعنى فيقول: " فليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً "{العسكري، ١٢٢: ١٣٥٢}.

ولنضرب على ذلك مثالاً فلو أخذنا معنى الكرم لاستطعنا أن نعبر عن هذا المعنى بألفاظ لا حصر لها وبأساليب متنوعة ومتعددة، فيمكن أن نقول " هذا الرجل كريم " ويمكن أن نقول " يداه مبسوطتان " وفي نفس الوقت نستطيع أن نقول " كثير الرماد " ونستطيع أن نصف الرجل بالكرم بأن يديه بيضاء وأنه يبتسم عند وجود الضيف، وهكذا فإن التعبير عن هذا المعنى يتم بأساليب وألفاظ متعددة ولا نهاية لها، وتقييم هذه الألفاظ والأساليب يتبع لمدى جدتها وجديتها ولذلك نرى التفاوت الكبير بين الإنسان البليغ والإنسان العادي. وهذه المسألة في الحقيقة ترتبط بعدة أسباب ودوافع، فيمكن أن يكون لهذه المسألة ارتباط بالمتكلم والنواحي النفسية له، فنفس المتكلم تحاول أن تختار ما ترتاح إليه وما تجده غير مبتذل ولا مستهلك من قبل وبهذا يريد المتكلم أن يحقق ذاته وشخصيته باختياره لألفاظ لم يسبقه إليها أحد، ولهذه المسألة يمكن أن يكون ارتباط بالسامع من الناحية النفسية أيضاً، فالمتلقي ينتظر من المتكلم مايريح ويشبع ذوقه ونفسه، فنجد أحياناً القارئ يستمتع بقراءة رواية ما، لكن ما هو السبب؟ السبب يكمن في تراصف الألفاظ وصياغتها وفقاً للمعنى المحدد، وفي الحقيقة لو نظرنا إلى دوافع أخرى لرأينا أن أعداء الأمة العربية والإسلامية يحاولون أن يشككوا في قوة اللغة العربية وبلاغتها وأنها غير قادرة على الاستيفاء بحاجات العصر وبالمعاني المستحدثة، وبذلك تبرز قيمة الألفاظ بأن يستطيع مفكرو العربية وعلماؤها إيجاد السبل من خلال ألفاظ العربية للرد على هذه الحملة الهمجية وأن يدحضوا مقولة أن اللغة العربية عاجزة عن استيعاب المعاني والمضامين الجديدة لروح العصر وتقنياته، ومن هنا يبرز دور المجامع اللغوية في محاولة التعريب وإيجاد الألفاظ المناسبة لمعطيات الحضارة والتطور.

٢- التمايز بين اللفظ والمعنى:

المعاني هي الحاضنة للألفاظ والحاملة لها وهي وعاؤها ومحتواها، فالألفاظ هي كالباس الخارجي التي تحوي داخلها المعاني، وعلى هذا يمكن أن يتشكل عندي تبعاً لهذا الكلام أحوال متعددة.

أولاً: أن يكون اللباس جميلاً والمحتوى قبيحاً

وهنا نقصد باللباس الألفاظ وبالمحتوى المعاني، ووفقاً لعلماء العربية فإن هذه الحالة يمكن أن تحدث عندما نتكلم عن معنى رديء بألفاظ جميلة أو أن يكون المعنى بسيطاً والألفاظ فخمة وجزلة وهذا نلاحظه في الشعر وفي الروايات والكتابات النثرية كثيراً، فالشاعر مثلاً عندما يريد أن يرسم صورة حبيبته أو صورة لشخص ما نجده يهيل عليه من أجمل الصفات والألفاظ وإن كان المعنى لا يحتاج أكثر من بضعة ألفاظ للتعبير عنه، وهذا ما يلاحظ في الروايات خصوصاًعندما يسرد الكاتب للتعبير عن معناه البسيط أحداثاً وعبارات تكاد تكون من العيار الثقيل، والشعراء والكتاب يفعلون ذلك ليسبغوا كتاباتهم ومعانيهم بشيء من القوة والمتانة، ومن هنا تبرز قوة الكتابات وعظمتها، فكلما كان المعنى المعبر عنه من خلال ألفاظ قوية وجزلة قوياً كانت الكتابات أدوم في القراءة والزمن، وهذا ما حدا بابن قتيبة أن يصنف أبيات المضرب بأنها من التي حسنت ألفاظها وقصرت معانيها، {العلوي، ٢٨١: ١٩٥٤}

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشددت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

يقول ابن قتيبة " هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي منهم الرائح، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح "{ابن قتيبة، ١٩٩٧ : ٨}.

وفي الحقيقة لا يمكن أن ننظر إلى هذه المسألة بهذا الشكل لأنه لا يمكن أن نقول عندنا معنى سيء وألفاظ جيدة لأن المعنى لا يمكن أن يكون جيداً أو سيئاً في ذاته، ولكن ننظر إلى المعنى بجماله وروعته من خلال الألفاظ والأسلوب الذي اتبعه الكاتب. لكن علماء العربية لأسباب كثيرة منها المنافسات الكبيرة بين شعراء العصور المتقدمة وتمثلهم لاتجاهات متناقضة فقد أدى ذلك إلى تطور عملية الفصل بين اللفظ والمعنى وترجيح أحدهما على الآخر. وقد ظهرت هذه المسألة في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي نتيجة للتطورات وبدء دخول الأعاجم وما حملوه من مدنيات أجبرت بعض الشعراء التخلي عن القديم والانجذاب وراء مظاهر الحضارة

والمدنيات المستجلبة من الخارج، فكما هو معروف كانت المعارك على أشدها في العصر الأموي والعباسي، فقد برزت المعركة حامية بين الفرزدق وجرير في العصر الأموي وقد عدّ النقاد أن الفرزدق ينحت في صخر في إشارة إلى محاولته الإبداع والغوص في معاني لا تحتمل ما يريد التعبير عنه، ثم جاءت المعركة بين البحتري وأبي تمام وقد كانت على وطيسها وعقد النقاد المقارنات والموازنات العديدة بينهما وقالوا إن البحتري أميل إلى الطبع منه إلى أبيتمام، {الآمدي، ١٠٣: ١٩٩٢}، فأبو تمام كان يحاول أن يفلسف المعاني ويدخلها في تعقيدات من خلال استخدامه لألفاظ متناقضة مرة ومتشاحنة فيما بينها مرة أخرى.

وأجرى الآمدي بعض الموازنات لأبيات بين البحتري وأبي تمام بين فيها كيف أخلّ كلا الشاعرين ببعض أبياتهما في المعنى، فمثلاً يعلق على بيت أبي تمام الذي يقول فيه

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

فهنا أبو تمام يقول: "مصونات الدموع السواكب" فكيف يكون من السواكب ما هو مصون ولهذا فقد أخلّ أبو تمام بالمعنى على حساب اللفظ {الآمدي، ١٢١: ١٩٩٢} . وأيضاً نراه ينقد البحتري في بيته

قف العيس قد أدنى خطاطا كلالها وسل داري سدعي إن شفاك سؤالها

يقول الآمدي: هذا لفظ حسن ومعنى ليس بالجيد لأنه قال قد أدنى خطاطا كلالها أي قارب من خطوها الكلال وهذا كأنه لم يقف لسؤال الدار الذي تعرض لأن يشفيه سؤالها وإنما وقف لإعياء المطي، فسوء المعنى هنا سببه عدم مطابقة الغرض وخروجه عن مبدأ اللياقة التي يمليها غرض الوقوف على الأطلال {الآمدي، ١٣٤: ١٩٩٢}.

وتبرز أهمية هذه النقطة عند الطلاب والمعلمين في ضرورة اختيار المعاني المناسبة لمستواهم والمعاني التي يستطيعون من خلالها تطوير لغتهم وليس هذا فحسب، بل وفي تنظيم هذه المعاني والموضوعات، فكثير من موضوعات الكتاب توضع بشكل غير منظم لا على المستوى ولا على الموضوعات، فمثلاً نجد بعض الموضوعات تنتقل من المستوى الأول إلى المستوى الثالث دون المرور بالمستوى الثاني مما يؤدي بالطلاب أن يصعبوا على أنفسهم اختيار الألفاظ والأساليب، والمعنى وإن كان جيداً لكنه بالنسبة لهؤلاء الطلاب يعد معنى متأخراً ويحمل دلالات سلبية،

فعملية التعليم الناجحة من شروطها المهمة أن يكون المعنى مناسباً للألفاظ والألفاظ مناسبة للمعنى، وهذا يجعل الطالب يكره وينفر من العربية لشعوره بعدم مجاراة المعنى المطروح له. وتبقى إساءة المعاني قائمة باستخدام الألفاظ المعقدة التي يظن الطالب من خلالها أنه يجيد ويحسن وصفه للمعاني وهو في الحقيقة يبتعد عنها ويعقدها.

ثانياً: الشكل حسن والمضمون حسن

وفي هذا الضرب يكون اللباس في أبهى حلة والمحتوى في صورة رائعة، ويتحقق هذا الأمر عادة عند المجيدين والشعراء حيث يحاولون أن ينتقوا معنى ذا روح وحركة، ومن ثم يحاولون أن يبنوا البناء عليه، وبقدر ما يكون المعنى ذا قيمة تكون الألفاظ على قدر كاف من الحسن والإجادة. وجمال الألفاظ وعذوبتها في هذا الشكل لا تتبدى من اختيار الألفاظ فحسب وإنما في تناسبها وانسيابها وتناغمها الصوتي والمقطعي، فمثلاً عندما يقول أبو ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

هذا البيت في الحكمة وقد جمع هذا البيت الألفاظ المتناسبة والمنسابة مع بعضها البعض، فمن يقرأ هذا البيت لا يجد تقعراً ولا تعقيداً، بل تنساب الألفاظ في فمه مثل انسياب الماء، والمعنى كما هو واضح في الحكمة والاعتبار، وبهذا يكون قد جمع البيت جمال المعنى مع جمال الألفاظ، وهذا ما جعل الأصمعي يقول عن هذا البيت إنه أبدع بيت قالته العرب { ابن جعفر، ١٤٧: ١٩٨٣}.

ونحن في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها نحاول أن نؤكد على هذه النقطة كثيراً، فنرى الطالب يعبر عن المعنى البسيط بالألفاظ الجزلة، وعند قولنا المعنى بسيط أو الألفاظ جزلة فإننا لا نقصدها بذاتها، بل تبعاً لمستوى الطالب، فربما يكون المعنى صعباً أو واسعاً ومستوى الطالب لم يبلغ الحد المطلوب فنجده يستخدم ألفاظاً عالية المستوى لأنه يشعر تماماً بقوة المعنى والموضوع، وبالتالي سوف تقف لغته عند هذه الجمل ولا تتعداها إلى غيرها، ولنضرب مثالاً على ذلك مثلاً طالب في المستوى الثاني أي بعد مرور ستة شهور على تعلمه العربية نجده يدخل إلى موضوعات كالسياسة والاقتصاد ويحاول أن يسأل الآخرين أسئلة من مثل ما هو رأيك بالأزمة الاقتصادية في العالم؟ والطالب في هذا المستوى لن يستطيع الإجابة إلا بكلمات بسيطة ك

"سيئة " أو " هي مشكلة كبيرة " أو مثلاً يسأل الطالب زميله ماذا تفكر عن الانتخابات؟ والطالب هنا يمكن أن يمتلك بعض المفردات للتعبير عن هذه النقطة ولكنه لا يستطيع أن يشكلها وفق متانة وقوة هذا السؤال، وفي نفس الوقت نجد أن الطالب في المستوى الأول عند الحديث عن معنى من المعاني وليكن موضوع (في المستشفى) نجد بعض الطلاب يحاولون أن يقفزوا فوق هذا الموضوع ليشكلوا جملاً أكبر من الموضوع الذي نحن بصدده، ولذلك فكثير من المعلمين يقولون للطالب انتظر فما تريد أن تقوله لا يناسب مستوى هذا الموضوع وهذا المعنى.

ثالثاً: المعنى جيد وحسن والألفاظ قصرت وتراجعت

يكثر هذا القسم خصوصاً في الشعر والأعمال الأدبية، فنجد أن بعض الشعراء والكتاب لا يُحسن استغلال المعنى بالألفاظ، فنجد عمله الأدبي لم ينل حظه من الشهرة والقراءة الكافية. وفي الحقيقة عندما يكون المعنى فخماً والألفاظ ما ناسبت هذا المعنى فإن الألفاظ نفسها تتنافر فيما بينها، والقارئ المتمرس يحس بذلك من أول وهلة ولقد عرض ابن قتيبة لهذا القسم وطبقه على بعض الأشعار التي جاد معناها وقصرت ألفاظه ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويعقب ابن قتيبة على هذا البيت بقوله " هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق ". {ابن قتيبة، ١٣، ١٩٩٧} ويذكر أبياتاً أخرى يدلل على هذا القسم ومنها قول النابغة

خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

قال أبو محمد: رأيت علماءنا يستجدون معناه ولست أرى ألفاظه جياداً ولا مبينة لمعناه، لأنه أراد: أنت في قدرتك علي كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف {ابن رشيق، ٦٩: ١٩٦٤}.

وفي الحقيقة ما يهمنا من هذا القسم في تعليم العربية هو أن الطالب بعد مستويات متقدمة لا يستطيع أن يعبر عن المعنى بالألفاظ الكافية والوافية، فنراه بعد سنتين من تعلمه العربية لايمتلك الألفاظ التي تؤهله للتكلم في حق موضوع أو معنى من العيار الوسط أو الثقيل، فإذا سألناه مثلاً

عن رأيه حول الانتخابات الأمريكية أو حول الفيضانات التي ضربت منطقة ما فإن جوابه يكون إما كانت الانتخابات جيدة أو سيئة وكذلك الحال في وصف الفيضانات.

رابعاً: تأخر المعنى واللفظ معاً

ويكثر هذا القسم عندما يزداد التقليد والمحاكاة السلبية دون إبداع، فنجد كثيراً من الكتاب أو الشعراء يقلدون ما جاء به الآخرون في المعنى واللفظ، وكلنا يعرف في نهاية العصر العباسي وما بعده كيف ساد التكلف والتصنع في الشعر والنثر، فأصبحنا نرى الشاعر يتلقف معنى من المعاني ويبدأ يصبغه بصبغة متكلفة وزينة باهتة ظناً منه أنه يحسّن الشعر ويعطيه رونقاً جميلاً وهذا ماكثر في العصر المملوكي وما بعده، فأصبح الكتاب همهم الأول التكلف والصنعة في اللفظ والمعنى، ولنضرب على ذلك مثالاً لنبين هذا الضرب بشكل جيد، يقول الأعشى في تغزله في امرأة { ابن طباطا، ٢١١: ١٩٩٤}.

وفوها كأقاحي غذاه دائم الهطل

كما شيب براح با رد من عسل النحل

فالأعشى يريد أن يصف فم هذه المرأة وقد أتى بصورة باهتة مستهلكة وقد جمع بين الخمر والعسل في نفس البيت وهذا ما لا يستسيغه الذوق ولا يقبله الطبع السليم. ومما يدخل في هذا الباب شعر العلماء، فالخليل بن أحمد العروضي أراد أن يقول شعراً على غرار أصحاب الشعر الكبار، فخرج شعره لا ماء له ولارونق يقول:{ المرزوقي، ٢٦: ١٩٥١}.

إن الخليط تصدع فطر بدائك أو قع

لولا جوار حسان حور المدامع أربع

أم البنين وأسما ء والرباب وبورع

لقلت للراحل ارحل إذا بدا لك أو دع

لقد جمع الخليل في شعره مقولة الشعراء القدماء في افتتاح قصائدهم بالنسيب و لم يساعده الحظ في ذلك لأن هذه المقدمة قد قيلت ولاكتها الألسن حتى ملّ منها السامع، ثم جاء بكلام لا علاقة له بالشعر ولا بالنثر. ومن هنا نؤكد أن فساد الألفاظ يأتي من عدم انسجامها مع بعضها

البعض، والمثل الواضح والذي يتخذه النقاد في تأكيدهم على هذا القسم قول الأعشى:{ ابن جعفر، ٤٩: ١٩٨٣}

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

فهذه الألفاظ في الشطر الثاني كلها بمعنى واحد وكان يمكن أن يستغني بأحدها عن جميعها.

٣- اتحاد اللفظ والمعنى وعدم الفصل بينهما

لقد دارت قضية اللفظ والمعنى بين النقاد و الأدباء والبلاغيين، وقد تناولها كل فريق من الوجهة التي تخدم رؤاه وتفكيره، فالنقاد والأدباء حاولوا أن يفصلوا بين اللفظ والمعنى فصلاً تاماً وتناولوا بعد ذلك اللفظ وبينوا سلبياته وإيجابياته وكذلك فعلوا بالمعنى وقاموا بوضع اللفظ مقابل المعنى وبذلك فقد سارت هذه العلاقة دائماً في فهم خاطئ وبدا عليها عدم التفكير السليم والصحيح. وقد كان لعلماء البلاغة رأي مختلف تماماً عما سبقهم وعلى رأس هؤلاء عبد القاهر الجرجاني الذي جمع مؤلفين مهمين حملا أفكاره ونظرته عن اللفظ والمعنى، فقد بث خلالهما رأيه وفلسفته لهذه القضية وتبلورت آراءه حول اللفظ والمعنى من خلال نظرية النظم التي أوجدها ورفض إيثار اللفظ على المعنى والمعنى على اللفظ، فقد نادى عبد القاهر بوحدة اللفظ والمعنى واعتبرهما كالشيء الواحد الذي لايمكن فصله عن بعض، فكانت نظرية النظم مُؤسَّسة على هذا المفهوم، يقول:" إن الألفاظ والمعاني تناسقت وتناسبت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل "{الجرجاني، ٤٠: ١٩٧٨}. وهذا الكلام يحيلنا إلى العصر الحديث حيث أكد سوسير هذا الكلام عندما قال باعتباطية الدلالة وأن المعنى يكتسب لفظه بشكل اعتباطي دون اتفاق على ذلك {غازي، ١٠١: ١٩٨٥}. وهذا الكلام وإن دل على شيء فإنه يدل على صعوبة الفصل بين اللفظ والمعنى وأن الأول للآخر مثل الروح للجسد.

لقد وحّد عبد القاهر اللفظ والمعنى بعد أن قام من قبله بالفصل بينهما، فهو يؤكد أن الألفاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد. وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على أننا لا يمكن أن نقيس الألفاظ منفصلة عن المعاني ولا يمكن أن نقيس المعاني منفصلة عن الألفاظ، فقيمة اللفظ بالمعاني التي تحتضنها وقيمة المعاني

بالألفاظ التي تلبسها. ولو أخذنا على ذلك مثالاً من القرآن فعندما يقول الله عز وجل في القسمة التي قسمها المشركون في حق الله ونسبهم إليه الإناث بزعمهم وشركهم فرد الله عليهم بقوله { تلك إذن قسمة ضيزى}(النجم: ٢٢)، فكلمة ضيزى في نفسها تستثقل وهي كلمة مستهجنة، لكنها حققت غاية بوجودها في هذا المعنى الثقيل والمستهجن، وبذلك تكون حققت الهدف لتشير إلى أن هذا الفعل الذي قام به هؤلاء المشركون هو فعل مستقبح إلى درجة عالية، ولهذا تكون هذه الكلمة قد تناسبت واتحدت مع المعنى الموجود فيه والمعنى يكون قد اتحد بهذه اللفظة، وهذا ما سار عليه علماء البلاغة وأوضحوه ورسموا المناهج والأسس للكلام الفصيح والإنسان البليغ فيما بعد {الجرجاني، ٤٦: ١٩٨٨}.

ونحن في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يمكن أن نستفيد من نظرية النظم كثيراً، فهذه النظرية أكدت على جمال اللفظ متحداً بالمعنى من خلال القواعد، وهذه القواعد تجعل اللفظ والمعنى يسيران ضمن نظام حركي متوازن لاتطغى كلماته على بعضها، وهذه المشكلة في تعليم العربية تكاد تكون المشكلة الأكبر في عملية التعليم، فالجملة التي يكونها الطلاب لا تستقيم وتتوازن إلا في السنوات الأخيرة من دراستهم العربية، فنجد أن الجمل عند الطلاب مضطربة بسبب عدم تحكيمها للقواعد اللغوية. وعبد القاهر الجرجاني عندما تكلم عن القواعد اللغوية لم يتكلم عنها مستقلة، بل من خلال معرفة الألفاظ معرفة سليمة وهذا لا يتحقق إلا بمعرفتها من خلال المعنى والأسلوب والقيم البلاغية المتنوعة، وهذا ما نشاهده عند الطالب الأجنبي حيث يستخدم ألفاظاً ضمن نظام نحوي سليم لكنها غير مناسبة للمعنى المطروح، ولنأخذ مثالاً على ذلك فكلمة "آسف" هي تستخدم في معنى الحزن وأحياناً الاعتذار، لكن الطالب عندما يريد أن يعبر عن حزنه تجاه صديقه الذي ما نجح في الامتحان أو أصابه أمر مكروه فيقول له " أنا آسف" فالجملة ربما تكون صحيحة نحوياً وضمن المعنى اللغوي للكلمة لكن ليس ضمن المعنى السياقي لهذا الموقف.

الخاتمة:

لا بد لي في نهاية هذا البحث أن أوضح بعض النقاط والنتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ومنها

- كان تفضيل الجاحظ اللفظ على المعنى لا لمجرد الفصل أو الانتصار الأعمى للفظ ولكن لهدف حماية اللغة العربية من الهجمة الشعوبية التي كانت في زمانه.

- كان انتصار أبي هلال العسكري للفظ على حساب المعنى تقليداً لأفكار الجاحظ، فقد كان أبو هلال العسكري يتبع الجاحظ في كل أفكاره وآرائه، ولذلك نجد أفكاره طبق الأصل عن أفكار الجاحظ.

- الانتصار للفظ كان مرحلة متقدمة عن الأفكار الأخرى، وكان هذا نتيجة للمعارك الشعرية التي سادت في بداية عصر الإسلام ومابعده على الرغم من أنه كانت توجد في العصر الجاهلي هذه المعارك والنقائض إلا أنها لم تتبلور وتنضج إلا في العصر الأموي عندما كانت المعركة على أشدها بين جرير والفرزدق والأخطل، ونحن لا نعدم الانتصار للمعاني في بدايات الشعر ولكنها كانت قليلة وتسير بشكل غير منتظم.

- قضية اللفظ والمعنى لم ينظر إليها في البدايات كعملية إبداعية بقدر ما نُظر إليها بأنها موافقة للذوق الشعري أو غير مناسبة له، ولذلك دخلت هذه القضية تحت الموضوع الشعري أكثر من الموضوعات الأخرى.

- جمعت فكرة عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم أفكار اللفظ والمعنى بشكل أكثر منطقية من الأفكار السابقة فهي لم تفضل طرف على طرف وإنما عالجت هذه القضية بشكل علمي وعقلي.

- لا تزال الاستفادة من اللفظ والمعنى في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها غير كافية، على عكس الدراسات الأوربية التي تركز كثيراً على مجال اللسانيات في تعليم لغتهم.

- لو استثمرت العلاقة بين اللفظ والمعنى بشكل جيد في مجال تعليم اللغة لظهرت لنا نتائج باهرة وفعالة في هذا المجال.

المصادر:

ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة التجارية، ١٩٦٤

الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، دار الكتاب، لبنان، ١٩٩٢

ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧

ابن طباطبا، عيار الشعر، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤

أبو هلال العسكري، الصناعتين، مكتبة الحلبي، مصر، ١٩٧١

أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢

الجاحظ، البيان والتبين، مكتبة الجندي، لبنان، ١٩٨٢

الجاحظ، الحيوان، مكتبة ابن سعد، سوريا، ١٩٨٣

عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المعرفة، سوريا، ١٩٨٨

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨

علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى، دار الكتب العربية، ١٩٥٤

عياد شكري، المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي، مجلة الأقلام، العدد١١، السنة الخامسة عشرة، بغداد، ١٩٨٠

المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٥١

يوسف غازي، مدخل إلى الألسنية، دار العالم العربي، ١٩٨٥